تاريخ الإرسال: 09-07-2018
تاريخ القبـول: 19-07-2018

الأسلوبية السوسيولوجية بديلا للأسلوبية التقليدية في دراسة الخطاب الروائي

تقية هاجر– طالبة دكتوراه – جامعة سطيف2
إشراف: د. مبروك دريدي – جامعة سطيف2

ملخص:

إن الإبدال المعرفي الذي تحاول هذه الدراسة اقتراحه هو الاهتمام بالخطاب الروائي باعتباره جنسا أدبيا له خصوصياته ومميزاته ـ من ناحية اللغة والأسلوب ـ التي تميزه عن الخطاب الشعري الذي يعد أكبر منافس له والذي احتكر اهتمام جل الدارسين والباحثين في مجال الأسلوبيات، ومنه فسؤال الدراسة هو: هل استطاع الخطاب الروائي أن يثبت وجوده وسط البحوث والدراسات التي كانت ولازالت موجهة نحو الخطاب الشعري؟ وهل استطاعت الأسلوبية القديمة أن تظهر ما في لغة الرواية من جماليات أم أنها ضيقت عليها وأساءت لها وهذا ما يستدعي بالضرورة إيجاد أسلوبية تتناسب وطبيعة الخطاب الروائي؟ وهل ما قدمه باختين في مجال الدراسات الأسلوبية للخطاب الروائي كاف ليثبت الأصالة الأسلوبية للكلمة الروائية؟ وكيف تعامل النقاد والدارسون العرب مع هذا الجنس الأدبي؟

الكلمات المفتاحية: الخطاب الروائي، الخطاب الشعري، الأسلوبية، التعدد الغوي، مبدأ الحوارية، سوسيولوجيا الرواية.

Stylistic sociological alternative to traditional stylistics to study the novelist discourse .

Abstract:

The cognitive substitution that this study attempts to propose is to take care of the literary discourse as a literary sexual with its peculiarities and characteristics _ in terms of language and style_ which distinguish it from the poetic discourse, which is greatest

المنارة للاستشارات

competitor, which monopolize the interest of most scholars and researchers in the field of methods and from which the study question is: Could the narrative prove its existence in the research and studies that were and still are directed towards the topic discourse? Was it possible for the old style to show the language of the novel aesthetics or did it narrowed and abused it, and this necessarily necessitates finding a method suited to the nature of the novelist discourse? Is what Bakhtine in the field of the stylistic studies of the novel enough to prove the originality of the stylistic word of the novel? And how did Arabic critics and scholars deal with this literary genre?

مقدمة:

تعد الدراسات الأسلوبية من أقدم الدراسات النقدية حتى وإن لم تكن معروفة بهذا الاسم إنما عرفت باسم البلاغة التي عنيت بالخطاب الشعري، ولم تعط أي أهمية للخطاب النثري بجميع أشكاله، وتطورت الدراسات البلاغية إلى أن اندثرت وظهر ما يعرف اليوم بالأسلوبية التي حذت حذو البلاغة في عنايتها بالخطاب الشعري، فلقد كان النقاد يتسابقون للكشف عن مميزات الكلمة الشعرية من خلال دراسة المستويات "الصوتية ، الصرفية، التركيبة، الدلالية" إلى غاية القرن السابع عشر، ولقد سميت هذه الأسلوبية فيما بعد بالأسلوبية التقليدية، إذ لم يكن هناك مكان في هذه الدراسات للخطاب الروائي.

فقبل القرن السابع عشر لم يهتم أي من النقاد والفلاسفة والمفكرين والباحثين عموما بالأشكال النثرية وبخاصة الخطاب الروائي، فإذا ما توغلنا في البحوث والدراسات التي حاولت أن تعط للكلمة الروائية مكانة وسط البحوث والدراسات نجدها قليلة جدا، ويمكن أن نقول عنها أنها مجرد إشارات أو ومضات لم تستطع أن تقدر الخطاب الروائي حق قدره، فقد تم اعتبار الخطاب الروائي مظهرا من المظاهر الاجتماعية تبحث في وجود الإنسان ومشكلاته، وأنها تصوير للواقع وللصراعات الأيديولوجية، وصراع الشخصية البطل مع الطبقة البرجوازية، وهذه الدراسة هي دراسة أيديولوجية تجريدية، بحيث لم يتم اعتبار

المنارة للاستشارات

الرواية فنا من الفنون وإنما بنية اجتماعية نفسية، ولم يتم البحث في اللغة المُشَكِلة للخطاب الروائي أو عما يكتنفها من جمال أسلوب ومن أصالة ورقي، ويمكن أن نشير إلى بعض من هذه البحوث:

*الحركة الرومانسية الأولى بألمانيا "رومانسية مجلة اتينيوم « L'Athénium » فقد اعتبرت هذه الحركة الرواية "جنسا قائما على تعدد الأجناس التعبيرية وعلى تجاوز العناصر الروائية مع الفكر الخالص والغنائية مع التعبيرات النثرية المبتذلة".[1]

*كما نجد **هيجل** في كتابه "الاستتيقا"، فقد أخذ يحلل الرواية من الناحية الاجتماعية وكأن الرواية وجدت فقط لتصور الواقع الاجتماعي الفرنسي، وتصور الصراعات بين الطبقات البرجوازية والطبقة العامة، فقد جعل الرواية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ذات طابع اجتماعي بحت، كما نجد **لوكاتش** الذي بنا أسس نظريته حول الرواية على أفكار **كانط وهيجل**، فقد ربط نظريته في الرواية بسياقات فلسفية تاريخية من خلال دراسته للملحمة والدراما. إذ نجد أن هؤلاء الثلاثة يرون من الرواية تعبيرا عن الذات وعن مشاكلها مع المجتمع وعن تمزقاته، وما قدمه هؤلاء في مجال الدراسات التي تهتم بالخطاب الروائي لا يمكن إنكاره، لأنه يعد حجر الأساس واللبنة الأولى التي اعتمد عليها باختين وغيره في محاولة الكشف عن أصالة الكلمة في الرواية.

ومع نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت بعض الدراسات التي حاولت الخروج بالخطاب الروائي من مجال الدراسات الأيديولوجية التجريدية إلى مجال الدراسات الأسلوبية، لكن هذه الدراسات لم تكن تعترف بالأصالة الأسلوبية للكلمة الروائية وإنما كانت تدرس الخطاب

---

[1].ميخائيل باختين. الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة.ط1. دار الفكر للدراسات. القاهرة. 1987. ص8.

المنارة للاستشارات

الروائي بشكل سطحي وتدرسه كما يدرس الخطاب الشعري من خلال دراسة المستويات البلاغية، وأيضا فهم الكلمة الروائية بنفس فهم الكلمة الشعرية وإطلاق نفس الأحكام التي تطلق على هذه الأخيرة، "فاللغة الشعرية" "والفردية اللغوية" و"الصورة" و"الرمز"، و"الأسلوب الملحمي" هي مقولات صاغتها الأسلوبية التقليدية وفهمها الدارسون للخطاب الروائي فهما خاطئا من خلال ربطها به، لأن هذه المقولات ترتبط بالخطاب الشعري أما تطبيقها على الخطاب الروائي فهذا يعني التضييق على الكلمة الروائية والتقليل من قيمتها الفنية. وبهذا فالأسلوبية التقليدية لا تحترم خصوصية الخطاب الروائي خاصة والنثري عامة ولا تقدم له أي إضافات.

مع منتصف القرن العشرين بدأت الكلمة الروائية تحتل مكانتها في مجال الدراسات والبحوث الأسلوبية ـ باعتبار أن الخطاب الروائي هو جنس أدبي يختلف عن الخطاب الشعري ويتعارض معه في الجوهر ـ لكنها بقيت نوعا ما تدور في فلك الأسلوبية التقليدية إلى أن جاء المفكر الروسي **ميخائيل باختين** الذي سعى إلى إخراج الخطاب الروائي من حقل الدراسات الجافة السطحية إلى دراسة تعترف بالأصالة الأسلوبية للكلمة الروائية من خلال ما قدمه في كتابيه "الكلمة في الرواية" و" شعرية ديستويفسكي".

1ـ أسلوبية الرواية عند ميخائيل باختين:

لقد رفض باختين الدراسات الأسلوبية التي تشبه الخطاب الروائي بالخطاب الشعري فهو يرى من الرواية جنسا أدبيا قائما على تعدد الأصوات واللغات وتباينها، وهو من هنا يرفض الدراسات التي كانت تؤمن بالفردية ووحدة اللغة التي يمثلها البطل الروائي، ودعا إلى تحطيمها بقوله بضرورة التنوع والتعدد اللغوي وتداخل الخطابات، ومن ثمة تحطيم القيود التي عاشت عليها الرواية طوال القرون الماضية، فهو يرى من الرواية جنسا تعبيريا خالصا لا تتدخل في تشكيله أي عناصر أخرى، ومن هذا المنطلق اتخذ باختين روايات

المنارة للاستشارات

ديستويفسكي أساسا له في تحقيق نظريته في الرواية باعتبارها مثلا يحتذي به في تحقق الشكل الروائي.

على اعتبار أن الرواية ـ كما قلنا سابقا ـ تقوم على التعدد اللغوي وتعدد الأصوات فهذا معناه أنها غنية بالوحدات الأسلوبية الغير متجانسة، والتي تكون مستقلة عن بعضها البعض قبل أن تدخل في الخطاب الروائي، لكن بمجرد دخولها لهذا الأخير فإنها تخضع لوحدة متكاملة هي وحدة الكل، يقول **باختين:** " **الرواية كلاً ظاهرة متعددة في أساليبها متنوعة في أنماطها الكلامية متباينة في أصواتها، يقع الباحث فيها على عدة وحدات أسلوبية غير متجانسة توجد أحيانا في مستويات لغوية مختلفة وتخضع لقوانين أسلوبية مختلفة**".[2]

وقد حدد **باختين** الأنماط الكلامية التي يتألف منها العمل الروائي إلى خمسة أنماط:[3]

1ـ السرد الأدبي الفني المباشر للمؤلف.

2ـ أسلبة أشكال السرد الحياتي اليومي.

3ـ أسلبة أشكال السرد نصف أدبي الحياتي المختلفة.

4ـ الأشكال المختلفة للكلام المؤلف الأدبي.

فالرواية عند **باختين** أشبه بالبؤرة التي تجتمع وتتداخل فيها الأجناس الأدبية "شعر أمثال، حكم..." والأساليب واللغات المختلفة(مثلا: لغة القرآن، لغة التصوف، لغة الصحافة...)، وما ينضوي تحت هذه اللغات من لهجات اجتماعية متنوعة ترد على لسان شخوص الرواية على اختلاف انتماءاتهم وطبقاتهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية، حيث تذوب كل هذه اللغات واللهجات والأساليب لتشكل لنا الصورة النهائية للخطاب الروائي وهذا يمثل المظهر

---

[2] . ميخائيل باختين.الكلمة في الرواية. ترجمة يوسف الحلاق. منشورات وزارة الثقافة. دمشق. 1988. ص9

[3] ـ المرجع نفسه. ص9

المنارة للاستشارات

المتفرد لأسلوبية الرواية،وهو ما سماه **باختين** "تنضيد اللغة الأدبية"،"بمعنى تفكيكها إلى لغة أجناس (خطابية، صحافية، أدبية، والأجناس المتنوعة للأدب الكبير) وإلى لغة مهن(طبيب، معلم، تاجر...)، وإلى مجتمعات وتوجهات وفرديات..."، كما أن هذا التباين والتعدد في اللغات والأصوات واللهجات نستشفه من خلال الحوار الذي يدور بين الشخوص حتى الكاتب أو سارد الأحداث نجده يشارك في الحوار وذلك بوعي منه ودون وعي، وهذا يقودنا للقول أن أسلوبية الرواية ترفض أن يتفرد الراوي بلغة واحدة أو ما يسمى "**الفردية اللسانية واللفظية للكاتب**"[4]، يقول **باختين** في هذا السياق: "... **بهذا التنوع الكلامي الاجتماعي وبالتباين الفردي بين الأصوات الذي ينمو على أرضيته توزع الرواية مواضيعها كلها وعالم المعاني والأشياء الذي تصور وتعبر عنه توزيعا اوركسترا ليا، وما كلام المؤلف وكلام الرواة والأجناس الدخيلة وكلام أبطال الرواية، إلا وحدات التأليف الأساسية التي يدخل التنوع الكلامي الرواية بواسطتها، فكل وحدة من هذه الوحدات تسمح بوجود تعدد في الأصوات الاجتماعية وتنوع في العلاقات والصلات بينها (وهي حوارية بنسب مختلفة).**[5]

ومن سياق كلام **باختين** يمكن أن نقول أنه قدم ردا للباحثين الذين اعتمدوا الأسلوبية التقليدية في دراستهم للخطاب الروائي، ذلك أن الخطاب الروائي لا يمكن دراسته مجزئا، كل وحدة أسلوبية على حدة، أو التركيز على وحدة على حساب أخرى، فنجد الباحثين إما يدرسون الأسلوب أو اللغة بمعزل عن الجنس الروائي، وإما يختارون أسلوبا من الأساليب ويحللونه بوصفه يمثل الخطاب الروائي ككل، فهم هنا لا يعرفون نوعية الخطاب الذي بين أيديهم ولا يعلمون مدى تميزه واختلافه عن بقية الأجناس الأدبية، فهذه الدراسة المجزئة تصدق

---

[4] ـ ميخائيل باختين. الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة. ص 40

[5] ـ ميخائيل باختين. الكلمة في الرواية.ص12

المنارة للاستشارات

على الخطاب الشعري، ذلك أن لغته تقوم على الوحدة والفردية، فالخطاب الشعري مكتف بذاته لا يحتاج إلى محاورة الآخرين وذلك لأنه يعتمد لغة واحدة ولغته تكفيه تعبر عن كل ما يريد دون الحاجة إلى لغة أخرى، كما أن طبيعة الخطاب الشعري تفرض عليه لغة واحدة لأن غايته المباشرة والقصدية وهذا ما أكده **حميد لحميداني** بقوله أن لغة الشاعر تمحو أي أثر للتعدد اللساني أو صوتي فالشاعر يقوض اللغة بأسلوب يجعلها مكثفة عميقة الدلالة، وهي كما عبر عنها **باختين** بأنها العالم البطليموسي للشاعر، على عكس الخطاب الروائي الذي يمثل التنوع الكلامي والاجتماعي وتباين الأصوات أهم مقوماته وأساس تميزه، ذلك أن الروائي يختلف عن الشاعر فهو يستقبل داخل عمله التعددية اللسانية والصوتية الأدبية والغير أدبية ـ كما ذكرنا سابقا ـ وهذا ما يجعل عمله أكثر عمقا، فعلى الرغم من كل التنوعات والاختلافات التي يخلقها التعدد نجد أن الروائي يحافظ على شخصيته كمبدع وأيضا على وحدة أسلوبه.[6]

***التعدد اللغوي ومبدأ الحوارية:**

1ـ مبدأ الحوارية:

لقد شاع التنوع الكلامي واللغوي المصبوغ بالحوارية في أجناس الأدب الدنيا كما سماها باختين، لكن الدارسين لم يهتموا به أو بالأحرى تجاهلوه، حتى الدراسات الأسلوبية التي ادعت أنها تدرس الخطاب الروائي تجاهلت الحوار واعتبرت أن العمل الأدبي منغلق على سياقه أو مكتف بذاته لا يحتاج إلى الاحتكاك مع عناصر جديدة من الخارج وأن لغته لا تقبل التحاور مع لغات أخرى وهذا ينطبق على المحادثة العادية، "**إن الأسلوبية تقفل على أي ظاهرة أسلوبية داخل السياق المونولوجي للقول المكتفي بذاته والمنغلق كأنما**

---

[6] ـ ميخائيل باختين.الخطاب الروائي. ص67

المنارة للاستشارات

تحسبها زنزانة السياق الواحد، فلا هي قادرة على التجاوب مع أقوال الآخرين ولا هي بقادرة على تحقيق معناها الأسلوبي بالتفاعل معها، بل عليها أن تستغرق ذاتها في سياقها المغلق وحده".[7] فهذه الأسلوبية حاولت البحث عن الوحدة في التنوع الكلامي واللغوي بمعنى البحث عن الأصالة الحوارية للكلمة في لغة واحدة بمعزل عن بقية اللغات أو كلام الغير، لكن الكلمة بالنسبة **لباختين** لا تكسب صفة الفاعلية والحيوية والتميز إلا إذا تفاعلت مع كلمات الغير، والأسلوبية قبل **باختين** لم تكن تبحث في حوارية الكلمة وإنما في حوار الكلام الخارجي أو التأليفي، فحوارية الكلمة لها خصائص دلالية، نحوية وتأليفية، لكن الدارسين لم يفهموا أهمية دراسة حوارية الكلمة، وارتضوا قبول الفهم السلبي للحوار ومثل هذا الفهم لا يضيف شيئا للكلمة، "... **التوجه الحواري للكلمة ظاهرة تتصف بها أي كلمة بطبيعة الحال إنه الوضع الطبيعي لأي كلمة حية، ذلك أن الكلمة في طرقها إلى الموضوع وفي توجهاتها إليه تلتقي بكلمة الآخر ولا يمكنها إلا أن تتدخل في تفاعل حي متوتر معها**".[8] فهنا يدعو **باختين** إلى الخروج من الفهم السلبي الضيق للكلام إلى الفهم النشط الذي يدخل الكلام إلى عالم ينبض بالحياة تتفاعل فيه السياقات وتختلف فيه وجهات النظر واللغات الاجتماعية فالكلمة تخلق تفردها وتشكلها الأسلوبي في خضم هذا التفاعل، ومن ثمة انفتاح الكلام على أفق جديدة هي أفق الآخر،فالكلمة تخلق وتعيش في ظل سياقها وسياق الغير، فقد انشغل **باختين** في معظم كتبه ودراساته بتوضيح مفهوم الحوارية، الذي يعد "**اصطلاحا مفتاحيا في عمله الفكري ونظرته لعلاقة الأنا بالآخر...فهو يرى أن اللغة تدخل في عملية محتدمة من الصراع الدائم، وأنها مليئة بالتعارضات والشروخ الداخلية... إذ نجد أن الايديولوجيا تولد صداما ما بين العلامة والعلامة،**

---

[7] ـ ميخائيل باختين.الكلمة في الرواية. ص 26

[8] ـ ميخائيل باختين. الكلمة في الرواية. ص 33

المنارة للاستشارات

والفكرة والفكرة في عملية تفاعل حواري، والذي ينشأ وسط أيديولوجيا يقيم حول الكائن الإنساني غلافا صلبا لا يستطيع الفكاك منه".[9]

كما أن الحوار يكسر فردية الكلام ويخرجه من الحدود التي رسمت له ومن أن المتكلم لا يستطيع إضافة عناصر أخرى تشاركه حواره وهذا ما يتميز به الخطاب عند تولستوي" **إن خطابه حتى في تعبيراته الأكثر غنائية وفي أوصافه الأكثر(ملحمية) يتوافق (وكثيرا ما يتنافر) مع مختلف مظاهر الوعي الاجتماعي واللفظي المتعدد اللسان الذي يكبل الموضوع، وفي نفس الآن يتسرب هذا الخطاب بطريقة جدلية...".**[10] وهنا يكمن الخلاف بين الخطاب الشعري والخطاب الروائي، فالأول يصوغ الحوار في شكل غير أدبي على عكس الثاني الذي تظهر قوة الحوار فيه من خلال التناقض (توافق/تنافر) الذي يولده تعدد اللغات واللهجات الاجتماعية مما يحول الحوار إلى قوة خلاقة مبدعة من خلال توليد حوار الأصوات تلقائيا من حوار اللغات، كما أن الحوار في الخطاب الروائي وفي النثر الفني عموما يختلف عن الحوار العادي " حوارات الحياة اليومية، الحوارات البلاغية..."، فهذا الأخير يشترط إجابة فورية تقع في الذهن حال بدء الكلام ويعطيها الأولوية فهنا يكون الحوار سلبيا(الفهم يفترض جوابا حيث يكونان مرتبطان ديالكتيكيا)، أما الأول فيتفاعل فيه المُخَاطِب ويدخل في حواره سياقات مختلفة تختلف فيها وجهات النظر حتى طريقة صوغ الحوار تكون مختلفة فالمتكلم عندما يحاور فإنه يوجه خطابه لغيره بالطريقة التي يفهمها ويتبع لهجته، وأيضا يحاوره بحسب مستوى تفكيره بمعنى يبني حواره على مستوى إدراك محاوره، "**يسعى المتكلم إلى توجيه خطابه بوجهة نظره المحددة، نحو منظور الشخص الذي يريد أن يفهم، ويحاول**

---

[9]- ترفيتان تودوروف. ميخائيل باختين. المبدأ الحواري .ط2. ترجمة فخري صالح. المؤسسة العربية للدراسات. بيروت. 1996. ص9/8.

[10]- ميخائيل باختين. الخطاب الروائي. ص56.

المنارة للاستشارات

الدخول في علائق حوارية مع بعض مظاهره، إنه يتسلل إلى المنظور الأجنبي لمحاوره، ويشيد ملفوظه فوق الأرض الأجنبية ومن خلال الخلفية الإدراكية لمحاوره".[11]

ومن ثمة نجد أن الحوار أو الحوارية في الفن النثري عامة والخطاب الروائي خاصة لم يعد مقتصرا على تبادل كلام بين المتكلم والمتلقي، وإنما أصبح الركيزة الأساسية وجوهر النص الروائي، فهو يعبر عن حال الشخصية في أزمنة متعددة وبأشكال مختلفة، فهو كما يقول **إدريس قصوري:" الحوار يسهم في خلق الجو العام والأجواء النفسية الخاصة للشخصيات، فإنه يسهم في النتيجة مرة أخرى في رسم هذه الشخصية وخط بعض أجزاء هويتها"**[12]، وذلك راجع لاتساع اللغة على فضاءات كثيرة بعد أن كانت ثابتة محدودة،**"ليس هناك خطاب أول أو أخير، والسياق الحواري لا يعرف أية حدود (إنه يختفي في ماض غير محدود وفي مستقبلنا الغير محدود)، حتى المعاني الماضية، أي تلك التي ظهرت في حوار العصور السابقة، لا يمكن أن تكون ثابتة (مكتملة لمرة واحدة ومنتهية)، فسوف تتغير هذه المعاني دائما (مجددة نفسها) عبر تاريخ تطور الحوار المتعاقب، والذي سيأتي فيما بعد، في كل لحظة من لحظات الحوار هناك كتل هائلة وغير محددة من المعاني المنسية، ولكن في لحظات تعقب تلك اللحظات، وكلما تحرك الحوار قدما سوف تعود تلك المعاني إلى الذاكرة وتعيش بشكل جديد(في سياق جديد)..."**.[13]

---

[11] ـ ميخائيل باختين. الخطاب الروائي. ص56

[12]ـ إدريس قصوري. أسلوبية الرواية . مقاربة أسلوبية لرواية نجيب محفوظ ..ط1. عالم الكتب الحديث. الأردن. 2008. ص98. وانظر. ص49 من : برنار فاليط. النص الروائي (مناهج وتقنيات). ترجمة رشيد بن جدو.

[13] ـ ترفيتان تودوروف. ميخائيل باختين. المبدأ الحواري. ص 202/203

المنارة للاستشارات

2ـ التعدد اللغوي:

لقد انتظم التعدد اللغوي واللساني في الرواية منذ النمو التاريخي لها، لكنه لم يتسم بالوضوح ولم يكتس أهمية إلا مع ما سمي بالرواية الهزلية وقد مثلها كل من: **فييلديغ سموليت، ستيرن، ديكنز، هيبيل، جان بول ريشتر**، ففي هذا النوع من الرواية يتم استحضار اللغة الأدبية بجميع مستوياتها (اللغة السياسية/لغة الصحافة/ لغة النبلاء/ اللغة الواعظة...) وأهم ما يميز هذه النوع من الروايات هو إقبالها على توظيف الأجناس التعبيرية المختلفة أو لغات المهن واللهجات الاجتماعية، أو ما يسمى بتنضيد اللغة بطريقة ساخرة، كما أنها تقوم على نوعين من الأسلبة: البناءات الهجينة ـ وهي ملفوظات تبدو في شكلها أنها تنتمي إلى متكلم واحد، إلا أننا نجدها تقوم على طريقتان في الكلام أو أسلوبان أو لغتان ومنظوران دلاليان اجتماعيان، هذه الملفوظات تتقاطع داخل البنية الهجينة دون أن تظهر للعيان أو يكون بينها فاصل شكلي من الناحية التركيبة ـ التعليل الموضوعي المفتعل أو المزعوم ـ وهو مرتبط بالبناء الهجين لأنه يصل إلينا من خلاله، فهو شكل من أشكال الخطابات الغيرية المستترة خلف الروابط المنطقية التي ترد في سياق الكلام ـ.

وقد تحدث باختين عن أشكال إدخال التعدد اللساني والصوتي في الخطاب الروائي:

1ـ المحكي: وهو محكي السارد ومحكي الكاتب المفترض، فكل لحظة من المحكي تكون مدركة بوضوح على صعيدين، على صعيد السارد، وحسب منظوره الغيري والدلالي والتعبيري، ثم على صعيد الكاتب الذي يعبر عن نفسه بطريقة منكسرة داخل ذلك المحكي فالكاتب لا يوجد داخل أي من المحكي أو

المنارة للاستشارات

السارد ولا حتى داخل اللغة الأدبية وإنما هو يوظفها داخل خطابه الروائي ويبقى هو عنصرا محايدا أو بعيدا.[14]

2ـ الشكل الثاني هو أقوال الشخصيات التي يمكن أن تكون لغة ثانية، ذلك أنها تمارس نوعا من التأثير على خطاب الكاتب حيث يمكنها أن تنضده "خطابات مستترة"، فهنا نجد أن لغة الكاتب ليست أحادية الشكل كما تظهر وإنما هي لغة متعددة تقوم على صراع بين وجهات النظر، وقد مثل **باختين** لهذا الشكل بروايات **تورغنيف**، فأسلوبه يقوم على التعدد اللغوي وتنضيد اللغة، فهو يدخله إلى خطابه من خلال حوار الشخصيات المباشر، وقد ساق باختين أمثلة من أعمال هذا الروائي لكي يوضح لنا دور الشخصية في إدخال التعدد اللغوي في الرواية، ذلك أنها تعد عاملا من عوامل تنضيد اللغة، فالشخصية بإمكانها أن تأخذ مجالا أوسع مما صنع لها داخل الخطاب ليشمل بقية الشخوص، وذلك لأنها تمتلك قدرة تأثيرية.

3ـ الشكل الثالث هو توظيف الأجناس التعبيرية(شعر، أمثال، حكم...) داخل الخطاب الروائي، وهذه الأجناس تحتفظ بشكلها واستقلالها وأصالتها اللسانية والأسلوبية، وهي تلعب دورا هاما في تكوين الخطاب الروائي، ويمكن أن تحدد ماهيته، ولكل جنس من هذه الأجناس الموظفة لغته الخاصة أو ما يسمى (التضمين).

والتعدد اللساني عند باختين يرد في الخطاب الروائي على شكلين، إما يتجسد أو يشخص فيرد على لسان المتكلمين، وإما يدخل في الحوار ذلك أن الرواية تقوم على مجموعة من المتكلمين، والمتكلم أو الإنسان هو الذي يخلق الأصالة الأسلوبية للرواية أو يحققها من خلال كلامه، وفي هذا السياق يذكر باختين أنه في الرواية يكون:

---

[14] ـ باختين.الخطاب الروائي. ص 83

المنارة للاستشارات

*الإنسان المتكلم وكلامه هما موضوع لتشخيص لفظي وأدبي، وهو مشخص بطريقة فنية وليس مجرد نقل وإعادة إنتاج فكلام الآخر يرد في سياق له خلفية حوارية مما يجعله يخضع لبعض التعديلات، لكن هذا ليس معناه أن نعيد كلام أو خطاب الآخر بكلماتنا لأن ذلك معناه كسر أصالة كلمات الآخرين، وهو ما سماه باختين "الكلام المقنع داخليا".

*المتكلم هو فرد اجتماعي ملموس ومحدد تاريخيا، وخطابه لغة اجتماعية، ومن ثمة يمكن أن يصبح خطاب شخصية روائية أحد عوامل تصنيف اللغة ومدخلا للتعدد اللساني.

*المتكلم هو منتج أيديولوجي وكلماته عينة أيديولوجية، ذلك أن الخطاب الروائي يصور لنا رؤية العالم ومفهومه ووجهة نظر المتكلم، وهذه النظرة أو الرؤية مشبعة بدلالة اجتماعية ومن ثمة تخرج الرواية من سمتها التجريدية إلى التشخيص الحواري.

ومن هنا يخلص **باختين** إلى أن التعدد اللغوي والصوتي واللساني عموما المدرج في الخطاب الروائي بجميع الأشكال التي ساعدت في إدراجه هو خطاب الآخرين داخل لغة الآخرين، فهو بهذا على صوتين هما: صوت الشخصية وصوت الكاتب أو نية الكاتب المكسرة، هذين الصوتين يربطهما الحوار، حوار لغتين حوار منظورين وحوار مفهومين.

يرى ميخائيل باختين أن الروائي الذي لا يملك قاعدة لسانية لأسلوبه وأيضا لا يدرك تنوع اللغة وتعددها اللساني ويعتمد على لغة واحدة، فإنه بهذا لا يستطيع أن يحقق أو يصل إلى المعضلات الحقيقية للجنس الروائي (التشخيص الأدبي للغة أو لخطاب الآخر/ صورة اللغة)، كما أن نصه لا يمكن تسميته بالرواية، وإنما نوع من الدراما الساذجة السيئة، "**وإذا فقد الروائي الأرض اللسانية لأسلوب النثر، وإذا لم يعرف كيف يرتقي باللغة إلى مستوى الوعي التنسيبي الجاليلي، وإذا لم يستمع إلى الثنائية الصوتية العفوية، وإلى الحوار**

المنارة للاستشارات

الداخلي للكلمة الحية المتحولة، فإنه لن يفهم ولن يحقق أبدا الإمكانات والمعضلات الحقيقية للرواية".[15]

إن توظيف لغات التنوع الكلامي (التعدد اللغوي واللساني)، لا يعني أن تنفي إحدى هذه اللغات الأخرى، وإنما تذوب هذه اللغات في بعضها البعض وتندمج لتشكل لنا نصا متعدد الألوان يخلو من الرتابة والملل، إذ نجد الكاتب أو الروائي ينتقل من لغة إلى أخرى بطريقة رشيقة دون إيجاد فواصل، وذلك كي لا يجعلنا نلاحظ أي فرق، كما أنه لا يدنس خصوصية أي لغة، بل يورد كل لغة على لسان الشخصية الأليق بها، فمثلا اللغة الواعظة ولغة الدين ترد على لسان رجل الدين(إمام/ راهب/ كاهن...) واللغة النبيلة ترد على لسان أصحاب الطبقة البرجوازية، واللغة العامية ترد على لسان أصحاب الطبقة العاملة... فهو لا يخلط بين هذه اللغات وإنما يقوضها بالشكل الذي يجعلها تتخلل النص بشكل متميز كما أنه يوظف التعدد اللساني ليس على سبيل إحداث تناقض وإنما يوردها كي تكمل لغة الأخرى وترتبط معها ارتباطا قائما على الحوار، والتعدد اللساني حالما يدخل الرواية يخضع لمعالجة فنية، ثم ينتظم في الرواية في نظام أسلوبي متماسك، وهنا تظهر خصوصية وتميز الخطاب الروائي.

والروائي عند باختين من خلال التعدد اللساني والصوتي الذي يتبناه لا يحطم الرؤى والمنظورات الاجتماعية والأيديولوجية، إنما هو يقوض هذه الرؤى الغيرية ويجعلها تخدم نواياه، إذ أن استخدام الروائي لملفوظات الآخرين ولغاتهم ولهجاتهم داخل خطابه يجعله يتسم بدلالة أدبية داخل أسلوب الرواية.

2ـ أسلوبية الرواية عند العرب:

لقد بدأ الاهتمام بالخطاب الروائي العربي يزيد في فترة التسعينيات كتابة ونقدا، من خلال التأثر بالمناهج النقدية الغربية التي درست الخطاب الروائي

---

15) ميخائيل باختين. الخطاب الروائي. ص19

المنارة للاستشارات

وبالأخص شعريته، أيضا تأثر الدارسون بما قدمه **ميخائيل باختين** في مجال نظرية الرواية، إذ أن الدارسين العرب قبل هذه الفترة ـ في فترة الخمسينيات والستينيات تقريبا ـ نزعوا في دراستهم للخطاب الروائي إلى التراث من خلال ممارسة تطبيقات البلاغة أو ما سمي بالأسلوبية التقليدية أو الأسلوبية الشعرية، إذ أنهم توجهوا إلى انتقاء النصوص التي تخدم دراستهم ـ اختيار الروايات ذات الطابع الشعري ـ متناسين أن الخطاب الروائي يختلف عن الخطاب الشعري، وبذلك نجد أنهم أغفلوا خصوصية الخطاب الروائي، وهذا ما أكده **حميد لحميداني** في كتابه "**أسلوبية الرواية**"، **ومحمد برادة** في كتابه "**أسئلة الرواية وأسئلة النقد**"، فقد أكد **حميد لحميداني** على الاختلاف بين أسلوب الشعر، والأسلوب في الرواية، وأن الأول لا يعمد إلى تعدد اللغات والأصوات فهو لا يحتمل أن تكون هناك أصوات كثيرة لأن ذلك ينقص من قيمته، على عكس الخطاب الروائي الذي تتعارض فيها الأصوات وتختلف فهو يقوم على صراع فكري أيديولوجي بين شخصيات عديدة وبين طبقات المجتمع المختلفة، فقد حذا **حميد لحميداني** حذو **ميخائيل باختين** في التمييز بين أسلوب الشعر وأسلوب الرواية، إلا أن باختين عندما تحدث عن الشعر لم يخصص وإنما تحدث عنه بصفة عامة، على عكس **لحميداني** الذي تحدث عن الشعر الغنائي فقط، "**إن القصيدة الغنائية تلتقي فيها خصائص النوع بالمظهر الفردي(...) لأنها تقر على مستوى عام بالوحدة الأسلوبية للفرد، أما الخاصية الجوهرية في النوع الروائي ـ منولوجيا كان أم حواريا ـ قد تعارض بمستويات مختلفة مع أي توجيه أسلوبي أحادي أو فردي مباشر، لأن الفن الروائي يقوم بالضرورة على مبدأ التعددية الأسلوبية**". (16)

(16). حميد لحميداني .أسلوبية الرواية.ط1. دراسات سال.مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. 1989. ص16

المنارة للاستشارات

كما أشار **لحميداني** إلى الفكرة التي تحدث عنها **باختين**، من أن الرواية متعددة الأساليب متباينة تقوم على وحدات أسلوبية غير متجانسة ، إلا أنها خاضعة إلى وحدة أسلوبية هي الكل المنظم الذي يشكلها ضمن نسق أدبي متجانس ومتميز، كما يرى أن وحدة الكل التي تنظم الأساليب خاضعة لمبدأ الحوارية الذي يحدد دلالة كل وحدة من الوحدات المُشَكِلَة للنسق الأدبي.

وقد طرح **لحميداني** أسئلة حول حقيقة التعدد اللغوي فيما إذا كان حقيقيا أو مصطنعا وإذا كانت الرواية فعلا تتسم بالتعدد أو بالوحدة، وقد حاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال تفريقه بين أسلوب الرواية الديالوجية، وأسلوب الرواية المنولوجية، فرأى أن الأولى تتطلب التعدد اللغوي وأن يكون الكاتب غير مشارك أو يمثل عنصرا محايدا، كما أن قيمتها الجمالية تظهر من خلال تعدد الأصوات والحوار، على عكس الثانية التي يغلب عليها الصوت الواحد والنظرة الأحادية وهي تتسم بطابع شعري، ومن ثمة نجد أن أسلوب الرواية عند **لحميداني** يتميز بالتعددية اللغوية تبعا لتعدد الشخصيات واختلاف رؤيتها ووعيها، وهو أسلوب قائم على الحدث والمضمون خاضع لشروط التلفظ، وهذا ما أشار إليه الدكتور **طه حسين الحضرمي** في مقال له بعنوان "**أسلوبية الرواية دراسة في رواية الرهينة**"[17]، بقوله أن الرواية فن يستلزم من الدارسين نظرة أكثر شمولية، والأسلوبية هي منهج يعالج قضايا الشكل والصياغة الصورية، ومن ثمة فَرَبطُ الأسلوبية بالرواية يقتضي من الدارسين وضعها في إطار التلفظ، كما يؤكد في ذات السياق رأي **باختين** في أن الروائي ليس متعدد

---

[17]- طه حسين الحضرمي .أسلوبية الرواية دراسة في رواية الرهينة. مقال منشور. منابر ثقافية. 2009/8/23

المنارة للاستشارات

الرؤى أو متعدد الأساليب، إنما هو يأخذ الرؤى والأساليب الغيرية وينظمها ويقوضها بأسلوبه الخاص فتصبح ملكه خاضعة لسلطته.

من جهة أخرى نجد **محمد برادة** الذي تحدث في كتابه "**أسئلة الرواية وأسئلة النقد**" عن التعدد اللغوي، في مبحثه المعنون "**التعدد اللغوي في الرواية العربية**"، فهو يرى أن الروائي يواجه أسئلة الرواية وذلك لأنه يبحث عن شيء خاص يتفرد به الخطاب الروائي عن غيره من الخطابات، وهو "اللغة" القائمة على التعدد اللغوي ومبدأ الحوارية، إذ نجد أن الرواية العربية في فترة التحولات التي شهدها المجتمع من حروب وانقلابات... جعلها تنزع نحو الواقعية فأخذت تصور الصراعات الأيديولوجية والقضايا الاجتماعية، من خلال تشخيص عناصر الرومانسيك كما سماها **محمد برادة** في الطبقات الاجتماعية واللغات...، ومن هنا انتقلت الشخصية من مساءلة ذاتها إلى مساءلة الآخر من خلال خلق علاقة بين الشخصية الفرد والمجتمع، ومن هنا جرى البحث عن لغات تكسر أحادية اللغة التي استحال التعبير من خلالها فأصبحت بحاجة إلى من يشاركها وذلك بسبب تعدد الأصوات وسط هذه المواجهات والصراعات، فظهرت أصوات برلمانية/ أصوات واعظة/ أصوات دينية...، ومن هنا أصبحت الرواية العربية تندرج ضمن مفهوم يعتبرها مجالا يتجسد فيه تعدد اللغات والأصوات والعلائق والرؤيات، وهذا يجعل الرواية تُحَوِرُ اللغة العربية وتقوضها كي تلتقط التغيرات التي يشهدها المجتمع العربي من ناحية الوعي والفكر، ومن ثمة كسر القداسة التي حافظت عليها الثقافة العربية للغة العربية.

كما يرى **محمد برادة** أن التعدد اللغوي صورة للإبداع الذي يغير المفهوم السائد للأدب وما ينطوي تحته من أيديولوجيات، فالتعدد اللغوي داخل النص الروائي هو مكون داخلي يساهم في التحقق الشكلي والخطابي والأيديولوجي للنص، وقد ظهر التعدد اللغوي بشكل واضح في الرواية العربية مع بدايات القرن العشرين، ومثل له **برادة** بالعديد من الروايات العربية، كرواية "زينب"

المنارة للاستشارات

لمحمد حسين هيكل، الذي لجأ إلى استعمال العامية والصيغ الشفوية في جزء هام من حوارات الرواية فهو "**ينتصر للذاكرة اللغوية في مظهرها الكلامي**".[18] وقد حذا العديد من الروائيين حذو حسين هيكل في استخدام التعدد اللغوي نجد منهم: **يحي حقي/ عبد الرحمان الشرقاوي/ يوسف إدريس** وغيرهم كثير.

يرى **محمد برادة** أن الرواية العربية اكتسبت مكانة في ظل التعدد اللغوي، والتصنيفات الاجتماعية باعتبارها أقدر الأشكال التعبيرية على استيعاب هذا التنوع والتعدد، وقد أشار في هذا إلى ما قدمه **ميخائيل باختين** في التأسيس لنظرية الرواية، من خلال فكرة التعدد اللساني الذي اعتبره **باختين** ـ كما ذكرنا سابقا ـ الأساس وجوهر الخطاب الروائي.

خاتمة:

من هنا وكخلاصة لما قيل نجد أن الخطاب الروائي هو جنس أدبي متميز متفرد عن بقية الخطابات الأدبية والأجناس التعبيرية، لذلك فهو يستدعي تطبيق أسلوبية تناسب تفرده وهذه الأسلوبية هي الأسلوبية السوسيولوجية كما قال بها **باختين** " **هذا التفرد يتطلب أسلوبية ملائمة لا يمكن أن تكون إلا أسلوبية سوسيولوجية، فالحوار الداخلي والاجتماعي للخطاب الروائي يستدعي الكشف عن سياقه الاجتماعي الملموس الذي يعدل مجموع بنيته الأسلوبية، و(شكله)، و(محتواه)، فضلا عن أنه لا يعدله من الخارج وإنما من الداخل ذلك أن الحوار الاجتماعي داخل الخطاب نفسه وداخل كل عناصره، سواء تلك التي تخص (المحتوى) أو تخص (الشكل)**".[19]

*إن ما قدمه **باختين** حول نظرية الرواية يعد مقدمة منهجية يعتمدها كل من جاء بعده من المنظرين والنقاد والمحللين من أجل بحث أكثر، من أجل تطوير

---

[18]ـ محمد برادة. أسئلة الرواية وأسئلة النقد.ط1. شركة الرابطة. الدار البيضاء. 1996. ص33

[19]ـ ميخائيل باختين. الكلمة في الرواية. ترجمة يوسف الحلاق. ص68

المنارة للاستشارات

الفن الروائي وهذا لا يعني أن ما قدمه **باختين** لا يمكن إعادة النظر فيه أو تعديل ما جاء فيه.

*مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين حاول النقاد والدارسين العرب الخروج بدراسة الخطاب الروائي من الأسلوبية التقليدية وتطبيقات البلاغة القديمة إلى دراسة تقوم بالبحث في بنية الخطاب العميقة (دراسة اللغة/ البنيات الاجتماعية والأيديولوجية)، ويمكن أن نقول عنها أنها دراسة تقوم على أسس باختينية مع إضفاء بعض التغيرات والتبديلات كي تتناسب مع طبيعة الخطاب الروائي العربي وخصائصه.

قائمة المراجع:

1. إدريس قصوري. أسلوبية الرواية "مقاربة أسلوبية لرواية زقاق المدق لنجيب محفوظ". ط1. عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع. أربد. الأردن. 2008.
2. جميل حمداوي. أسلوبية الرواية مقاربة أسلوبية لرواية "جبل العلم" لأحمد مخلوفي. ط1. صحيفة المثقف. 2016.
3. حميد لحميداني. أسلوبية الرواية. ط1. دراسات سال. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. 1989
4. طه حسين الحضرمي. أسلوبية الرواية دراسة في رواية الرهينة. مقال منشور. منابر ثقافية. 2009/8/23
5. محمد برادة. أسئلة الرواية وأسئلة النقد. ط1. شركة الرابطة للنشر. الدار البيضاء. 1996.

مراجع مترجمة:

1. برنار فاليط. النص الروائي (مناهج وتقنيات). ترجمة رشيد بن جدو. المشروع القومي للترجمة. 1992

المنارة للاستشارات

2. تزفيتان تودوروف. ميخائيل باختين المبدأ الحواري. ترجمة فخري صالح. ط2. المؤسسة العربية للدراسات. بيروت. 1996.
3. ميخائيل باختين. الخطاب الروائي. ترجمة محمد برادة. ط1. دار الفكر للدراسات. القاهرة. 1987.
4. ميخائيل باختين. الكلمة في الرواية. ترجمة يوسف الحلاق. منشورات وزارة الثقافة. دمشق. 1988.

المنارة للاستشارات